
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الخزر وعلاقاتهم بالإمبراطورية البيزنطية

د. محمد محمد مرسي الشيخ
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ الإسلامي
بكلية العلوم الاجتماعية

اعتاد قراء المؤرخ جيبون أن يطالعوا اسم «ليو الخزري» إمبراطور الدولة البيزنطية في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري)[1] ، إذ كانت أمه أميرة خزرية زوجت من قسطنطين الخامس فأنجبت له هذا الأمير ، الذي اعتلى عرش بيزنطة باسم ليو الرابع ، وورد ذكر الخزر كثيراً في كتابات المؤرخين البيزنطيين ، بعد أن تعاظمت قوة الخزر في الأفق السياسي في ذلك الوقت ، حتى جرى الاهتمام بهم كثيراً في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، وحملت رسائل المستشار الإمبراطوري على البسفور إلى خاقان الخزر سمات التبجيل أكثر مما كانت تحمله الرسائل إلى بابا روما وخليفة شارلمان في الغرب[2] .

والخزر شعب غير سامي كان يسكن الإقليم الواقع بين المجري الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية للقوقاز ، وتتسع ممتلكاتهم اتساع الأراضي حول بحر أزوف ، وزاد اتساعها في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) أكثر من ذلك جهة الغرب حتى قاربت كييف وأواسط الدنيبر Dnieper ، بينما مارسوا نوعاً من الحكم على كثير من القبائل الضاربة جهة الشرق حتى أكسوس Oxus [3] . وبذلك أصبح الإقليم الخزري يمتد على الناحية الأخرى من خط الامتداد الطبيعي للعرب ، وأصبحت حدود الخزر تلاصق أملاك المسلمين في تلك الجهات ، وتقترب من مناطق غزوهم الجديدة . وهذا الموقع الاستراتيجي مكن الخزر من أن يلعبوا دوراً هاماً في الصراع السياسي والديني في ذلك العصر باعتبارهم أبطال المسيحية أو هكذا أرادوا لأنفسهم في تلك المرحلة بالذات ، وسببوا للمسلمين صعوبات جمة بغزواتهم في القوقاز وأرمينيا[4] .

---

(١) حكم ليو الرابع ما بين سنتي ٧٧٥ — ٧٨٠م ، واشتهر بالميل إلى الاعتدال فيما يتعلق بمناهضة عبادة الصور المقدسة والأيقونات ، أنظر : Vasiliev: Hist. of the Byzantine Empire, p. 263.

(٢) Dunlop: The Hist. of the Jewish Khazar, p. ix.

(٣) *Ibid.*, p. ix.

(٤) Ostrogorski: Hist. of the Byzantine State, p. 139.

في غضون سنوات قليلة ــ بعد وفاة الرسول الكريم محمد ﷺ سنة ٦٣٢م (١١هـ) زحفت جيوش الخلافة الإسلامية تجاه الشمال ، خلال حطام الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية مجتاحة كل شيء في طريقها ، حتى وصلت إلى الحد الجبلي الكبير للقوقاز ، وهذا الحد يمر في موضع ما على الطريق المفتوح إلى أراضي أوربا الشرقية ، وعلى خط القوقاز قابل العرب جيوش قوة منظمة قدر لها أن تعوق تقدمهم إلى حد ما ، وتحول دون اتمام فتوحاتهم في ذلك الاتجاه[١] . إذ اندلعت الحرب ضارية بين العرب والخزر وامتدت أكثر من قرن من الزمان أسفرت في النهاية عن وقف تقدم الجيوش الإسلامية إلى شرق أوربا من ناحية ومنع الخزر من التوسع من ناحية أخرى[٢] . بل إن البلاد القوقازية التي استولى عليها الخزر من الفرس ما لبثت أن خرجت من أيدي الخزر بعد ذلك بالفتح العربي ، وأدت تلك الحرب إلى دخول أجزاء من دولة الخزر ذاتها تحت الحكم العربي الإسلامي ، بل وانتشار الإسلام بين قطاعات كثيرة من الشعب الخزري لا سيما في أواخر العصر الأموي[٣] .

وعلى الرغم من ذلك يحلو لكثير من المؤرخين المحدثين إضفاء أهمية كبيرة على هذه الحروب ، والمقارنة بين ما قام به الخزر في أقصى أطراف أوربا الشرقية وشرقيها وما قام به فرنجة شارل مارتل في أقصى غرب أوربا ضد قوات المسلمين الزاحفة عبر البرانس في فرنسا[٤] . ويذهبون إلى القول بأنه إذا كان فرنجة شارل مارتل قد أوقفوا مد الغزو الاسلامي على ساحة تور في فرنسا ، فإنه في نفس الوقت تقريباً أو حوالي هذا الوقت تقريباً لم يكن التهديد لأوربا من جهة الشرق أقل خطورة ولكن قوة الخزر أوقفته تماماً في الشرق ، وصمد الخزر في مواجهة المد الإسلامي باعتبارهم حماة النصرانية في هذه الجهات[٥] .

وينتمي الخزر عرقياً إلى طراز قبلي أو شبه قبلي غير سامي ، نزح من أواسط آسيا إلى ما سمي فيما بعد بـ«خزريا» أو إقليم الخزر ، بين المجرى الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية

---

(١) *Ibid.*, p. 139.

(٢) Cavaignac : Histoire du Monde, VII, p. 169 (paris 1931).

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٨ «الخزر» ط. بيروت ١٩٦٧ .

(٤) Dunlop : *op. cit.*, pp. ix-x.

(٥) Dunlop : *op. cit.*,p. x.

للقوقاز ، وحول بحر أزوف وغرباً حتى أطراف أوربا الشرقية وسواحل البحر الأسود . وكانوا في مطلع العصور الوسطى وبداياتها لا يزالون يحتفظون بديانتهم الشامانية أي لا يزالون شامانيين[١] ، ثم اعتنق الكثير منهم المسيحية وخاضوا الحرب ضد المسلمين باعتبارهم أبطال هذه الديانة ، وقرب منتصف القرن الثامن الميلادي وفي وقت معين من تقدمهم وتطورهم اعتنق ملكهم والطبقة العليا ديانة اليهودية[٢] ، وتشير المصادر الإسلامية ، إلى أنهم تحولوا بعدئذ إلى الإسلام ، إذ اعتنق ملكهم الإسلام وتبعه كثير من قومه[٣] . ويؤكد المؤرخ المحدث دنلوب أنه مما لا شك فيه أنه بدون وجود الخزر في الإقليم الواقع شمالي القوقاز كانت بيزنطية ، وهي الدرع الواقي والحصن المدافع عن الحضارة الأوربية في الشرق ، ستجد نفسها مطوقة بالمسلمين من كل ناحية ولا بد وأن تاريخ المسيحية والإسلام كان سيختلف عما نعرفه وعرفناه كثيراً[٤] .

وإذا كان الخزر على هذا القدر من الأهمية فلماذا لم تجر محاولة جادة لكتابة تاريخهم مفصلاً ما دام يستحق التسجيل فضلاً عن إمكان الحصول على مادة جوهرية وأصلية على قدر كبير من الأهمية ؟ والروايات المسجلة عن تاريخ الخزر قدمها في الحقيقة مؤرخ كيمبردج ذائع الصيت بيوري J. B. Bury في فصل من أهم كتبه عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية[٥] . ويعتبر ذلك أحسن ما يمكن كتابته عن الخزر ، على الرغم مما قدمه آخرون في هذا المجال ، فضلاً عن عدد وافر من الرسائل العلمية المتعلقة بجوانب مختلفة من هذا الموضوع ، وإشارات عارضة في الكتب والمراجع الحديثة[٦] .

---

(١) دين بدائي من أديان آسيا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف .

(٢) Dunlop : *op. cit.*, p. 86.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ق ١ ص ٢٤٥ نشر د. صلاح الدين المنجد
المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠١ (ط. بيروت ١٩٦٥)
ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٥ — حوادث سنة ٣٥٤ (ط. بيروت)
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٨ — خزر — ط. بيروت ١٩٦٧ .

(٤) Dunlop : *op. cit.*, p. x.

(٥) Bury : Hist. of the Eastern Roman Empire.

(٦) Dunlop : *op. cit.*, p. x.

لكن على الرغم من ذلك فلا زال الخزر غير مألوفين لدى كثير من قراء وكتاب التاريخ ، ليس بسبب قلة الاهتمام بهم أو بما تقدمه قصتهم وإسهامهم في التاريخ ، ولا لصعوبة الحصول على المادة العلمية عن دولتهم ، ولكن بسبب صعوبة التعامل مع المصادر الموجودة التي تحوي قدراً ليس تافهاً من المادة التاريخية لكونها مكتوبة بلغات مختلفة كالاغريقية والعبرية والسريانية والأرمينية والجورجيانية والروسية والفارسية والتركية والصينية ، بالإضافة إلى العربية ، ولا نتوقع أن أحداً بوسعه أن يلم بكل هذه اللغات[١] . هذا فضلاً عما حوته هذه المصادر من التعارض والتناقض وغموض الحقائق والقضايا . ولقد تعاظمت المصادر الخاصة بالخزر ، وتراكمت مثلما نمت وتعاظمت معرفتنا بالتاريخ الشرقي عموماً وتاريخ شرق أوربا خصوصاً ، وبعد أن شهد القرن الأخير نشر كتابات الجغرافيين والمؤرخين العرب الذين تحدثوا عن الخزر وتناولوا تاريخهم بإفاضة ، بالإضافة إلى ما شهده هذا القرن من ظهور مادة عبرية إلى النور جاءت على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لهذا الموضوع[٢] .

والواقع أنه ليس بوسعنا أن نقدم في هذه العجالة كل ما يتعلق بتاريخ الخزر ، بداياتهم وعلاقاتهم المتاحة مع الفرس قبيل الإسلام ، وصلاتهم بالإغريق في الأزمنة المختلفة ، وحروبهم مع العرب واعتناقهم لليهودية ، ثم اعتناقهم للإسلام ، والمراسلات التي قيل أنها جرت بينهم وبين أسبانيا في القرن العاشر ، وعلاقات الخزر بروسيا[٣] ، واضمحلال دولتهم وضياع استقلالهم في القرن الحادي عشر ، ثم اختفاء هذه الدولة في النهاية ، وان جرت مناقشة معظم هذه الجوانب في اختصار شديد مع التركيز على علاقات الخزر ببزنطية في العصور الوسطى . وينبغي أن نسرع إلى القول بأن كثيراً من هذه القضايا ما يزال يثير قدراً كبيراً من الجدل والخلاف خاصة ما يتعلق بتاريخ اعتناق الخزر لليهودية أو ما يتعلق بتاريخ

---

(١) *Ibid.*, p. x.

(٢) أسهم فتح «مخزن الجنيزا Geniza » لأحد المعابد اليهودية في القاهرة القديمة (الفسطاط) في حل هذه المسألة ، مثلما أسهم في حل مسائل تاريخية أخرى أنظر :

Paul E. Kahle's Schwiech Lectures : The Cairo Geniza, p. 14 (London, 1947).

(٣) Chadwick : Beginning of Russian Hist., p. 115.

السقوط النهائي لدولتهم ، فما تزال هذه القضايا موضع استنتاج وحدس كبير لا مفر منه ولا يمكن تجنبه(١) ، واذا استثنينا حقيقة اعتناقهم لليهودية التي لا شك فيها فلا يزال البعض يتشكك في أمر اعتناقهم للمسيحية والإسلام في أزمنة مختلفة ، وإن كان ابن الأثير قد أكد خبر اعتناقهم للإسلام قرب منتصف القرن الرابع الهجري سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ، عندما أصبحوا مضطرين للدفاع عن أنفسهم أمام هجمات أحد الأقوام التركية بمساعدة أهل خوارزم المسلمين(٢) ، وفي هذه المرة تحول عدد كبير منهم إلى الإسلام وجاءت هذه الرواية تأكيداً لرواية مماثلة ذكرها المقدسي ، ولو أن رواية المقدسي مضطربة بعض الشيء(٣) ، وذلك بعكس رواية البلاذري الذي يشير إلى أن ملكهم أبدى استعداده للدخول في الإسلام حين غزاه مروان بن محمد قبل ذلك بأكثر من قرنين من الزمان سنة ١١٩هـ (٧٣٧م) وان لم يؤكد تحول شعبه إلى الإسلام في تلك المرحلة المتقدمة(٤) .

وأول ما يواجهنا في هذا الموضوع ، والسؤال الذي يطرح نفسه في البداية متى ظهر الخزر واسم الخزر لأول مرة في التاريخ ، وكيف برز الخزر على مسرح الأحداث ؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نبسط مختلف الآراء في ذلك ، والواقع أن هناك اتجاهاً لدى بعض المؤرخين لربط الخزر بالقبيلة الأسيوية القديمة التي روعت أوربا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، وهي قبيلة الهون Huns ، ويتحدث أصحاب هذا الرأي عن علاقة الخزر بالهون قبل أن تتفكك إمبراطوريتهم بوفاة أتيلا (٤٣٠ — ٤٥٣م) قرب منتصف القرن الخامس الميلادي(٥) . أي أن سقوط إمبراطورية الهون واختفائها تسبب في

---

(١) Dunlop : *op. cit.*, p. xii.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٥ حوادث سنة ٣٥٤ وانظر أيضاً .
Amedroz and Margoliouth : The Eclipse of the Abbasid caliphate, 2, 203.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٣٦١ (طبع دي غوية — ليدن ١٩٠٩)

(٤) البلاذري : فتوح البلدان — القسم الأول ص ٢٤٥ (نشر د. صلاح الدين المنجد) ونص عبارة البلاذري : « ولما بلغ عظيم الخزر كثرة من وطيء به مروان بلاده من الرجال ، وما هم عليه من عدتهم وقوتهم نخب ذلك قلبه وملأه رعباً ، فلما دنا منه أرسل إليه رسولاً يدعوه إلى الإسلام أو الحرب . فقال : قد قبلت الإسلام فأرسل إلى من يعرضه عليّ . ففعل فأظهر الإسلام ووادع مروان على أن أقره في مملكته .. »

(٥) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.

بزوغ قوة الخزر . وعلى الناحية الأخرى هناك رأي غلب على فريق آخر قوامه أن الخزر قد انبثقوا عن امبراطورية الأتراك الغربيين ، لأن الاشارات المبكرة للخزر تظهر في الوقت الذي توقف فيه ذكر الأتراك الغربيين ، وبهذه الصفة كان التحاق الخزر بقوات الإمبراطور هرقل في حروبه ضد الفرس سنة ٦٢٧ م ، ومساعدته في حصار مدينة تفليس ، ولكن لم يوضح أصحاب هذا الرأي ما إذا كان الخزر لا يزالون تحت حكم الأتراك في ذلك الوقت ؟ اذ كانت السهوب الأوربية الشرقية في القرن السادس الميلادي بما في ذلك حوض أتيل (الفولجا) تابعة للمملكة التركية البدوية العظيمة ، فضلاً عن سهوب آسيا الوسطى إلى حدود الصين[1] ، ولا يُعرف إلى الآن متى زال سلطان هؤلاء عن أوربا الشرقية ، فضلاً عن أن تحديد الأتراك بشرقيين وغربيين لا يظهر في كتابات المؤرخين الإغريق ، فالمؤرخ القديم ثيوفانو[2] يقدم الخزر على أنهم «أولئك الأتراك القادمون من الشرق الذين يدعون الخزر»[3] ، ويأتي لفظ الأتراك لدى غيره من الكتاب الإغريق دون تحديد ، ويشير الإصطخري إلى أن لغة الخزر تشبه لغة بلغار أتيل ويؤكد وحدة اللغة بين جميع الشعوب التركية[4] ، وقد نستنتج من هذا أن مملكة الخزر نشأت مباشرة عن الإمارة التركية التي كانت جزءاً من مملكة البدو العظيمة في القرن السادس الميلادي .

ويرد ذكر الخزر عند المؤرخين السريان قبل سنة ٦٢٧ م لأن كلا من ميخائيل سيروس Michael Syrus وبارهبرايوس (إبن العبري) Bar Hebraeus يشيران إلى ذلك برواية قوامها أنه إبان حكم الإمبراطور البيزنطي موريس Maurice (٥٨٢ — ٦٠٢م) تقدم ثلاثة إخوة من داخل سيكثيا Scythia إلى ناحية الغرب على رأس نحو ثلاثين ألف رجل ، وحينما وصلوا إلى حدود الدولة البيزنطية عبر أحدهم وهو بولجاروس Bulgarios نهر الدون واستقر داخل حدود الامبراطورية واحتل الآخران إقليم «الآلانيين» الذي كان يسمى بارزاليا Barsalia واتخذ هؤلاء جميعاً اسم الخزر من خزريج Kazarig ، وهو اسم

(١) Chavannes : Documents sur les Turcs Occidentaux, p. 133, (1903).

(٢) توفي حوالي سنة ٨١٨م .

(٣) Theophanes, p. 485, Ed. Bonn.

(٤) الاصطخري : المسالك والممالك ص ١٣١ (تحقيق د محمد جابر عبد العال الحيني)

أكبر هؤلاء الإخوة ، وإن صحت هذه القصة فلا بد وأن مرجعها هو يوحنا الإفسوسي John Ephesus [١] الذي يشير إلى بلغاريوز Bulgharioz وخزريج Khazerig على أنهما اخوان انحدر من صلبهما البغار والخزر . وطبقاً لهذه الرواية يكون الخزر قد وصلوا إلى القوقاز قادمين من أواسط آسيا حوالي نهاية القرن السادس الميلادي[٢] .

ويتحدث الكاتب الإغريقي ثيوفيلاكت Theophylact [٣] عن سفارة تركية إلى الإمبراطور موريس في سنة ٥٩٨ ، لها علاقة بما ذكرته المصادر السريانية . إذ يصف هذا الكاتب كيف أنه في السنوات السابقة ، أطاح الأتراك بالهون البيض والآفار والأيجوريين Uigurs الذين كانوا يقطنون ما أسماه الترك «النهر الأسود»[٤] . ثم عاد هذا الكاتب يتحدث عن هجرة جديدة من أواسط آسيا إلى أوربا في نفس وقت السفارة التركية إلى الإمبراطور موريس ، وكان قوام هذه الهجرة قبائل «التارنياخ Tarniakh و«الكوتزاجرز Kotzagers والـ«زبندر Zabender ولا بد وأن هذه الهجرة هي ما عنته المصادر السريانية بالإخوة الثلاثة الذين اتخذوا في النهاية اسم خزريج Kazarig الذي هو Kotzagers عن ثيوفيلاكت[٥] .

ويكون الخزر طبقاً لهذه الروايات قوماً من الأتراك قدموا من أواسط آسيا إلى أوربا الشرقية خلال حكم الإمبراطور موريس ، قرب أواخر القرن السادس الميلادي ، وكانت لهم علاقات واحتكاك وصلات سابقة بالأتراك الغربيين ، قدر لها أن تحي من جديد ، وأن يلعبوا دوراً هاما في الأحداث لا سيما مع بيزنطية .

وتمدنا المصادر الإسلامية أيضاً بقدر ليس بقليل من المادة التاريخية التي تلقي الضوء على

---

(١) توفي حوالي سنة ٥٨٦م وانظر : Barthold : Enc. Isl. art "Bulghar"

(٢) Dunlop : *op. cit.*,p. 5.

(٣) حوالي سنة ٦٢٠م (p. 232 Ed. Bonn) Chavannes, Documents, 246

(٤) Dunlop : *op. cit.*,p. 5.

(٥) *Ibid.*, p. 6.

بدايات الخزر وتاريخ انبثاق دولتهم ، على الرغم من أن هذه المادة لم تكتب إلا في الوقت الذي ازدهرت فيه دولة الخزر شمالي القوقاز ، وأصبح لها شأن بين القوى المعاصرة ، غير أن هذه المصادر ميزت بين ترك هذه الدولة وأولئك الترك الذين واجهوا الأجيال الأولى من المسلمين في قلب آسيا ، ففي مناقشة بين ابن المقفع [١] ونفر من أصدقائه طرح سؤال هام إلى أي الأمم ينتسب أكثر الناس ذكاء ، فجاء الترك والخزر أكثر الشعوب تأخراً في ذلك ، أو على الأقل كان هذا هو رأي العرب فيهم ، فلقد جاء الترك والخزر في المؤخرة بعد الفرس والإغريق والصينيين والهنود والأفارقة ، ولكن الشيء الذي يدعو إلى الالتفات في هذه الرواية هو التفرقة بين الترك والخزر في الصفات والمميزات ، وان احتلا معا مكانة غير مرموقة بين مختلف الأمم في رأي العرب ، كما ذكر أن الترك يعتمدون في حياتهم ويميلون إلى تربية الكلاب ، بينما كان الخزر يرعون قطعان الماشية [٢] . لكن على الرغم من أن الحكم جاء غير عادل بالنسبة لهذا الشعب إلا أن ما يهمنا من هذه الرواية هو أن الخزر جاءوا كمجموعة عنصرية أو عرقية لها طابع مميز ، ولها صفات مميزة بين طوائف الترك عامة [٣] .

ولقد ربطت روايات أخرى ما بين الخزر وعنصر الجراكسة ، وجعلت الخزر أصحاب بشرة شاحبة وشعور سوداء وعيون زرقاء غير أن ابن سعيد المغربي قدمهم في صورة مقبولة إلى حد بعيد فذكر أنه نظراً لبرودة الطقس في بلادهم فهم بيض البشرة زرق العيون أجسادهم فارعة وطباعهم باردة ومظهرهم العام خشن . وقال عنهم ياقوت : « وهم سود الشعور ، وهم صنفان : صنف يسمون قرا خزر وهم سمر يضربون لشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند ، وصنف بيض ظاهروا الجمال والحسن . . » [٤] . وعلى الرغم من أن وصف ابن سعيد المغربي قد قرب ما بين الخزر والأمم الشمالية ، إلا أنه لم يقدم أي دليل على

---

(١) توفي ابن المقفع سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩م)

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٠ (ط. سنة ١٣٣١ هـ) وانظر :

Rosenthal : Technique and Approach of Muslim Scholarship, p. 24, 72 (1947).

(٣) Dunlop : *op. cit.*, p. 10.

(٤) ياقوت : معجم ج ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ « خزر »

صلة الخزر بالعنصر الجركسي وإذا نحن وثقنا فيما بسطه بعض العلماء العرب لأصل كلمة الخزر ومعناها فإن الخزر يصبحون بذلك أقرب إلى شعوب المغول أصحاب العيون المائلة والبشرة الباهتة وغيرهم من الشعوب صاحبة هذه الصفات[١] . ومن الواضح أنه ليس هناك شيء من هذه القضية يمكن أن يكون حاسماً أو مؤكدا ، فربما كان لبعض الخزر بشرة جميلة وشعور سوداء وعيون زرقاء ، لكن ليس هناك ثمة شواهد على أن هذه الصفات تنسحب على الماضي أو حتى كانت تمثل الجانب الأعظم في شعب الخزر ، وفي بلاد الخزر في الأزمنة التاريخية المختلفة[٢] .

وتتناول المصادر الاسلامية تاريخ الخزر وبدايات دولتهم وأصولهم في روايات مختلفة كما فعل البلاذري واليعقوبي والطبري والمسعودي وابن الأثير وابن الفقيه وأبي الفدا وغيرهم ، لكن الشيء الذي يمكن أن نخرج به من روايات هؤلاء المؤرخين فيما يتعلق ببدايات الخزر ودولتهم ما ذكرته هذه المصادر وبعض المصادر الفارسية عن علاقات **(خاقان الخزر)** — قبل الإسلام — مع حكام الفرس الساسانيين وأباطرة الصين فضلاً عن الإمبراطورية البيزنطية ، وما أكدته هذه المصادر من أن ذلك الخاقان كان يتمتع بمكانة هامة أهلته لإقامة مثل هذا النوع من العلاقات مع حكام أكثر الإمبراطوريات قوة في القدم . ويكاد المؤرخون المسلمون[٣] يتفقون على أن هذه الدولة الناشئة اتخذت لها عاصمة منذ البداية على أحد روافد نهر ايتل (الفولجا) قرب مصبه وهي مدينة بلنجر ، ويذكرون كيف أنها كانت هدفاً للمسلمين في فتوحاتهم في تلك الجهات هي والحصون القريبة منها ، ويسميها ابن الأثير أحياناً بالبيضاء ويرى أن مروان بن محمد تقدم في فتوحاته حتى بلغ «البيضاء» عام **١١٩** هـ (**٧٣٧** م) حيث أجبره الملك الخزري على الفرار . ويذكر البلاذري[٤] ، ان هذا الملك عقد الصلح مع مروان بن محمد وأعلن استعداده للدخول في الإسلام ، ومن ثم ثبته مروان

(١) Gibb : Arab Conquest in Central Asia, 83.

(٢) Dunlop : *op. cit.*, p. 11.

(٣) الطبري : تاريخه ج ٨ ص ١٧٤ حوادث سنة ١٠٤ ، ١٠٥ هـ (ط. بيروت)
المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٥٥ (ط. بيروت)
ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٨٦ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان القسم الأول ص ٢٤٥ (نشر المنجد)

في ملكه . ويعلق أحد المؤرخين المحدثين على ذلك بقوله أنه مع ذلك لم يتوطد الحكم الإسلامي على نهر الفولجا ، بل ان سلطان الخزر امتد في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) حتى كاد يبلغ أسوار دربند[١] . ولياقوت نص يلخص به الأحوال الدينية في هذه البلاد اذ يقول : «والخزر مسلمون ونصارى وفيهم عبدة الأوثان ، وأقل الفرق هناك اليهود على أن الملك منهم وأكثرهم المسلمون والنصارى ، إلا أن الملك وخاصته يهود»[٢] . وتذكر الروايات أيضاً أن اليهود كانوا في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر أقل من المسلمين والنصارى في دولة الخزر ، اذ كان في أيتل — احدى المدن الهامة — أكثر من عشرة آلاف مسلم ومسجد جامع له مئذنة شامخة ، كما كان بها ثلاثون مسجداً آخر[٣] .

نخرج من ذلك كله بنتيجة هامة بعد دراسة مختلف المصادر والشواهد الممكنة وتتبع الروايات المختلفة : أنه لا يوجد أثر مادي على الخزر قبل القرن السادس الميلادي ، ولكن ببروز قوة الترك أو في نفس الوقت الذي ظهرت فيه قوة الترك في النصف الثاني للقرن السادس الميلادي جاء ذكر الخزر لأول مرة وتردد هذا الاسم قرب أواخر القرن السادس كثيراً في روايات المؤرخين والكتاب[٤] ، وظلوا في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ضمن املاك الترك الغربيين لكنهم ما لبثوا أن تمتعوا بالاستقلال الكامل في نفس ذلك القرن ، ولم تكن صلاتهم بالأتراك الغربيين صلات غامضة بل كانت صلات قوية ربطتهم بهم فترة ليست تافهة من الزمن قبل أن يستقلوا ويبدءوا ممارسة دورهم على مسرح الأحداث ابتداء من النصف الثاني للقرن السابع الميلادي[٥] .

أما عن علاقات الخزر بالدولة البيزنطية فقد رأينا أن الإمبراطور موريس كان قد استقبل قرب أواخر القرن السادس الميلادي (٥٩٨ م) سفارات من الترك وجرى نوع من الاحتكاك بين بيزنطية والأتراك بصفة عامة ، وان صحت هذه الرواية فإنها تكون أولى الصلات بين

---

(١) Dunlop : *op. cit.*, pp. 32-3.

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٨ «خزر»

(٣) Barthold : Enc. Isl. art "Khazar"

(٤) Barthold : Enc. Isl. art "Khazar"

(٥) Brosset : Histoire de la Georgie, I, pp. 227-9.

الأتراك في تلك الجهات والإمبراطورية البيزنطية(١) غير أن المصادر الإغريقية والأرمينية والجرجيانية تحدثنا أن بداية الاحتكاك كان في سنة ٦٢٧ م خلال حروب الإمبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) ضد الفرس ، إذ خرج هذا الإمبراطور في إحدى حملاته ضد الفرس ، وعسكر في لازيقا وأجرى مفاوضات للتحالف مع الخزر ، ومن ذلك الحين أضحى التفاهم بين البيزنطيين والخزر من أهم خصائص الدبلوماسية البيزنطية في الشرق(٢) ، ثم تقدم هرقل حتى وصل إلى تفليس Tiflis ردا على قيام الفرس بغزو أملاكه وهناك عند تفليس التقى هرقل بالخزر الذين تقدموا تحت قيادة رئيسهم **زيبل** Ziebel ،(٣) واقتحموا ممرات قزوين للقاء حليفهم هرقل وليخوضوا الحرب إلى جواره(٤) .

ويقدم المؤرخ جيبون وصفاً جميلاً لاستقبال الخزر للامبراطور ، إذ بادر زيبل بتقديم ابنه إلى هرقل وإمداده بنحو أربعين ألف جندي ليكونوا في خدمة الإمبراطور لمعاونته في الحرب ضد الفرس ، ثم قفل زيبل نفسه راجعاً إلى بلاده(٥) ، ويبدو أن هذه المساعدة قد أغرت هرقل بالتوغل في أراضي الفرس ومحاولة إنهاء الحرب لصالحه ، غير أنه غالى في ذلك إلى حد ما حتى اقترب الشتاء ، وأخذت هجمات الفرس تزداد عنفاً ، فأدى ذلك إلى نفاذ صبر الخزر من ناحية ولم تعجبهم الطريقة التي عالج بها الإغريق الحرب من ناحية أخرى ، فبدءوا يتراجعون تدريجياً ، إلا أن ذلك لم يثن هرقل عن عزمه فظل يتقدم على رأس قواته حتى أصبح على مسيرة ثلاثة أيام فقط من كتسفون (المدائن) Ctesphon العاصمة الفارسية حين سمع باندلاع ثورة في العاصمة راح ضحيتها كسرى(٦) وارتقى ابنه العرش على أثرها ، فسارع بمفاوضة هرقل لانهاء الحرب ثم قفل راجعاً إلى بلاده وذلك سنة ٦٢٨ م(٧) .

---

(١) Theophylact, Ed. Bonn, p. 282, Chavannes Documents, 246.

(٢) Ostrogorski : *op. cit.*, p. 93.

(٣) اتخذ بعد ذلك — حسب هذه الرواية الاغريقية — لقباً رفيعاً هو «الخاقان» أو خاقان الخزر .

(٤) Theophanes, 485, Ed. Bonn — Chavannes Doc., 252.

(٥) Decline and fall of roman Empire, p. 46.

(٦) Nicephorus, 20. Ostrogorski : *op. cit.*, p. 92.

(٧) Theophanes, Ed. bonn, 485 — Chavannes Doc., 252.

تلك هي رواية المصادر الإغريقية عن بداية الصلات والاحتكاك بين بيزنطية والخزر لكن هذه الرواية جاءت مختلفة بعض الشيء عما ذكرته المصادر الأرمينية[١] إذ تشير هذه المصادر الأخيرة ، إلى أنه في سنة ٦٢٥ م اقتحم الخزر أرمينيا وأوغلوا فيها ، فاستولوا على كثير من المغانم والأسلاب ، ثم قفلوا راجعين إلى بلادهم متخذين طريق دربند Darband دون أن تقابلهم مقاومة فارسية . ويبدو أن هذا النجاح قد أغرى ملك الخزر بالخروج بنفسه في العام التالي ، فأصدر الأوامر لكل من هو في نطاق سلطته : «القبائل والناس وسكان الجبال وسكان السهول ، الذين يعيشون تحت السقوف أو تحت السماء المكشوفة ، وأولئك الذين يحلقون رءوسهم أو من لهم شعور طويلة» أن يكونوا مستعدين للتقدم عند إعطاء الإشارة[٢] ، وحين حانت الساعة تقدم الخزر فحطموا قلاع تزور Tzur (دربند) ، التي كان ملوك الفرس قد بنوها ولم يدخروا وسعاً في تحصينها وتقويتها ، وأوغل الخزر نحو الجنوب ممعنين في قتل السكان ونهب ثروة الإقليم حتى وصلوا إلى تفليس ، وهنا التقى الخزر بالإمبراطور هرقل وقام الجيشان معا بحصار تفليس حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام ، وظل الجيشان محاصرين لتفليس حتى نجحت فرقة إمدادات قوية أرسلها الفرس من دخول المدينة ومنع سقوطها ، وعندئذ قرر الحلفاء التراجع مؤملين العودة في العام التالي كجيش واحد وقوة واحدة[٣] .

وتمضي الرواية الأرمينية فتذكر أنه بعد ذلك ، وفي عام ٦٢٦ م أرسل الإمبراطور هرقل أحد كبار رجاله ويدعى أندرياس ليفاوض الخزر ليصل الطرفان إلى اتفاق بشأن الغزو ، ويبدو أن الخزر أظهروا حماسة كبيرة للاتفاق مع بيزنطية لأن ملكهم أرسل فرقة من جيشه تقدر بنحو ألف فارس إلى مدينة القسطنطينية — كمظاهرة تأييد خزرية للامبراطور هرقل — وفي صحبتها وفد تفاوض للوصول إلى اتفاق مرض بشأن خطة الغزو[٤] . ويبدو أن الطرفين

---

(١) Moses of Kaghankaytuk (Kalankatuk). *See* Patkanian in : J. A. VI, VII (1866), p. 205. Chavannes of K. wrote in the 10 Century. Dunlop : *op. cit.*,p. 28.

(٢) Moses of K. — Patkanian in J. A. VI, VII, p. 205 (1866).

(٣) *Ibid.*, p. 205, Dunlop : *op. cit.*,p. 29.

(٤) يعلق المؤرخ المتحدث دنلوب على ذلك بقوله : «إذا نحن صدقنا هذه الرواية وحدوث هذه المفاوضات فلا بد وأنها جرت قبل لقاء تفليس» . أنظر Dunlop : *op. cit.*, p. 29.

قد وصلا إلى اتفاق بينهما ، لأن الرواية الأرمينية تمضي في ذلك بقولها أنه في العام التالي (٦٢٧ م) أرسل ملك الشمال[١] الفرق التي وعد بها تحت قيادة ابن أخيه شاث Shath أو شاد Shad ، فأغاروا على أران وأذربيجان وفي العام التالي (٦٢٨ م) ، وطبقاً لنفس الرواية دخل الخزر أران واستولوا على بارزعة Bardhaah ، ثم تحولوا ناحية الغرب تجاه تفليس تحت قيادة جبوخاقان Jebu Khagan وابنه[٢] فحاصروا المدينة الجرجانية ، وما لبث أن التحق بهم هرقل وجيشه المنتعش بنصره المؤزر على فارس . غير أن المدينة قاومت الحلفاء فقرر هؤلاء التراجع ، وبعد ذلك استولى الخزر تحت قيادة الخاقان وابنه على تفليس وعامل رؤساء حاميتها معاملة سيئة ، إذ جرى إحضار اثنين من كبار رجالها ومثلا أمام الخاقان فعاملهما بقسوة بالغة ، وأمر بسمل أعينهما ، وتعذيبهما عذابا شديداً ثم أمر في النهاية بتعليقهما على أسوار المدينة[٣] . وتضيف الرواية أن «ملك الشمال» قد أخذ نصيبه من الذهب والفضة ومعادن الحديد وغير ذلك من ثروة المدينة وحفزه ذلك للقيام بغزو أكبر في عام ٦٢٩/ ٦٣٠ م إذ أرسل فرقة تتكون من نحو ثلاثين ألف فارس يقودهم القائد خوربان ترخان Chorpan Tarkhan، فاستطاع أن يلحق الهزيمة بعشرة آلاف فارس وينساب على رأس قواته في ارمينيا وجورجيا وأران[٤] .

وإذا حاولنا المقارنة ومطابقة الروايتن الإغريقية والأرمينية ، نجد أن الرواية الأرمينية أكثر تفصيلاً ، وأدق تاريخا ، فعلى حين جعلت الرواية الإغريقية لقاء الخزر بالامبراطور هرقل أمام تفليس قد حدث مرة واحدة سنة ٦٢٧ م ، نجد أن الرواية الارمينية قد جعلت ذلك مرتين حدثت الأولى في سنة ٦٢٦ م ، والثانية سنة ٦٢٨ م ، وفي كلتا المرتين تراجع الحلفاء عن المدينة ، ثم ما لبث الخزر أن استولوا على تفليس بمفردهم بعد انصراف هرقل . وعلى حين جعلت الرواية الإغريقية من زيبل Ziebel رئيساً للخزر في اللقاء الذي جرى

---

(١) خاقان الخزر في نص ثيوفانو أنظر: Theophanes, 485 Ed. Bonn :

(٢) هو زيبل في رواية ثيوفانو الاغريقي Ziebel ويقول أنه اتخذ لقب الخاقان بعد ذلك أنظر : Theophanes, 485, Ed. Bonn

(٣) Dunlop : *op. cit.*, p. 30.

(٤) Chavannes Doc., 255, n. 3. Brosset : Hist. de la Georgie, I, pp. 227-9.

بين الخزر وهرقل[1] ، وذهبت إلى أنه لم يكن قد اتخذ لقب خاقان بعد وأمعنت في إظهار عظمة هرقل ومهابته بحيث لم يستطع رئيس الخزر إلا أن يقدم له ابنه وأربعين ألف محارب من جيشه لمساعدته ، نجد الرواية الأرمينية قد أشارت إلى أن الخزر كانوا تحت قيادة «ملك الشمال» (الخاقان) في المرة الأولى لحصار تفليس ، وفي المرة الثانية أرسل الخاقان جيشاً على رأسه ابن أخيه شاث أو شاد[2] ، وفي المرة الأخيرة التي استولى فيها الخزر على تفليس (٦٢٨ ـ ٦٢٩ م) كان جبو خاقان وابنه على رأس القوات ، وعلى حين ذهبت الرواية الإغريقية إلى أن الخزر قد تراجعوا بعد نفاذ صبرهم[3] ، واستمر هرقل في تقدم حقق النصر على أعدائه بمفرده وحرصت هذه الرواية على حرمان الخزر من المشاركة في تلك الانتصارات ، وخصت بها الإغريق وحدهم ، نجد الرواية الأرمينية أومأت إلى أن الخزر هم وحدهم الذين استولوا على تفليس بعد انصراف هرقل عنهم .

ويميل بعض المؤرخين المحدثين[4] إلى القول بأن زيبل Ziebel يقابل لقب Jebu . وهو نفسه لقب يابغو Yabgu التركي الذي كان يمنح للاخوة وأبناء الحاكم التركي ، ومعنى ذلك أن كلا الروايتين الإغريقية والأرمينية قد أصابتا فيما يختص بالمرة الأولى التي تقابل فيها الخزر وهرقل (٦٢٧م) ، اذ أشارت الرواية الأولى إلى أن زيبل هو رئيس الخزر (الذي لم يكن قد اتخذ لقب خاقان بعد) ، وأفادت الثانية أنه ابن أخي خاقان الخزر ، ويدعى شاث أو شاد ويبدو أن لقب يابغو هذا كان يمنح للرجل الثاني في دولة الخزر[5] .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات ، فقد مثلت هذه الأحداث حلقة هامة من حلقات الصلة بين دولة الخزر الناشئة وإمبراطورية بيزنطية ، في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي ، ولقد سكت عنّا الكتاب البيزنطيون في الفترة التالية ولم يشيروا إلى تجدد الصلات

(١) Theophanes, 485, Ed. Bonn.

(٢) Batkanian, J. A., VI, VII, 205 (1866).

(٣) Theophanes, 312.

(٤) Dunlop : *op. cit.*,p. 31

(٥) Brosset : Hist. de la Georgie, I, pp. 227-9.

والعلاقات فيما بين الخزر وبيزنطة ، حتى أواخر القرن السابع الميلادي أي إلى عهد الإمبراطور جستنيان الثاني[١] ، فجاءت هذه الفترة الطويلة التي تقرب من ثلثي القرن من الزمان فجوة هائلة فيما يتعلق بالعلاقات بين الطرفين ، ويبدو أن انشغال بيزنطة بمحاولة التصدي للجيوش الإسلامية الفتية التي بدأت تقلم أظفار الإمبراطورية منذ السنوات العشر الأخيرة من حكم هرقل (ت ٦٤١م) ، وما نتج عن هذه الأحداث من ضياع أملاك بيزنطة في الشرق قد أوقف الصلات بين بيزنطة والخزر مؤقتاً ، وفي هذه الفترة بالذات ، ثم بدأت الصلات من جديد قرب نهاية القرن السابع الميلادي[٢] .

في سنة ٦٩٥م (٧٦هـ) جرى طرد جستنيان الثاني من الحكم بعد فترة حكم امتدت نحو عشر سنوات ملأها جستنيان الثاني ظلماً وتعسفا وقسوة ومبالغة في إرهاق الناس بالضرائب ، فجرى عزله وجدع أنفه وعقابه على جرائمه[٣] ، ثم تقرر نفيه إلى خرسون في شبه جزيرة القرم[٤] ، فأقام جستنيان الثاني في خرسون في هدوء لبعض السنين[٥] ، لكنه ما لبث أن أحدث الفزع والخوف في النفوس حين أعلن أنه عازم على استعادة عرشه المفقود ، وفعلا ترك خرسون Cherson وانتقل الى دوروس Doros (دارس) عاصمة شبه جزيرة القرم Crimea[٦] ، وطلب مقابلة خاقان الخزر ، ولقد تلقى الخاقان هذا الطلب بشرف عظيم ، وسمع جيداً لما أراد أن يقوله جستنيان ، وتعاطف مع قضيته بل بالغ في إكرامه بتزويجه من أخته[٧] ، وتشير الروايات إلى أن اسم هذا الخاقان هو بوزير Busir[٨] ، وأن أخته أعطيت اسم ثيودورا عند زواجها من جستنيان الثاني ، وليس هناك دليل على أنها كانت مسيحية قبل زواجها ، بل الأرجح أنها اعتنقت المسيحية عند

---

(١) Ostrogorski : *op. cit.*,p. 125.

(٢) Dunlop : *op. cit.*, p. 171.

(٣) Theophanes, 566, Ed. Bonn. Nicephorus, 44, Ed. bonn.

(٤) Ostrogorski : *op. cit.*,pp. 123-4.

(٥) ويرجح بيوري ان إقامته امتدت حتى سنة ٧٠٤ تقريباً . Bury : Later roman empire, II, p. 360.

(٦) Vasiliev : The Goths in the Crimea, p. 83 (1936).

(٧) Ostrogorski : *op. cit.*,p. 127.

(٨) Bouseros or Ibouziros. Vernadsky : Ancient russia, p. 251

زواجها ، ويبدو أن جستنيان هو الذي اختار لها هذا الاسم الذي كانت تتسمى به زوجة جستنيان الأول[١] ، ثم سمح الخاقان لجستنيان الثاني بالتحرك إلى فاناجوريا Phanagoria على الشاطيء الشرقي لمضيق كيرتش Kertch .

غير أن القلق ما لبث أن استبد بإمبراطور القسطنطينية طيبريوس الثالث من جراء تحركات جستنيان الثاني وعزمه على استعادة عرشه ، ولذا أرسل سفارة إلى خاقان الخزر ، يطلب فيها إبعاد جستنيان الثاني وعدم مساعدته[٢] ، بل وعده بجائزة كبيرة إذا سلم له جستنيان الثاني حياً أو ميتا ، ويبدو أن الخاقان قد مال إلى التضحية بجستنيان وتذرع برغبته في تقديم بعض الحرس الخصوصيين لحماية جستنيان في حين كان في حقيقة الأمر يدبر الخطة للغدر به والقبض عليه وتسليمه إلى غريمه إمبراطور القسطنطينية ، فبعث إلى ممثليه في فاناجوريا حيث يقيم جستنيان والى حاكم البسفور يأمرهم بمنع جستنيان من الهرب والتحفظ عليه ، غير أن ثيودورا وقفت على أخبار هذه المؤامرة من أحد حراس أخيها ، فبادرت بنقل ذلك إلى زوجها[٣] ، فخرج جستنيان قاصداً خرسون ، وأرسل زوجته إلى أخيها[٤] ، بينما تقدم هو في مركب صيد صغير ناحية خرسون ، فانحاز إليه في خرسون عدد كبير من أصدقائه ، ونجح جستنيان بعد مغامرات عديدة ارتكب خلالها عددا من الجرائم وتخلص فيها من عدد من عمال بيزنطية في تلك الجهات بالحيلة تارة والاغتيال تارة أخرى حتى بلغ الساحل الغربي للبحر الأسود ، واتخذ له قاعدة هناك يثب منها لاستعادة عرشه[٥] .

ولا يعنينا هنا تتبع الخطوات التي استعاد بها جستنيان عرشه فهذا موضوع خارج عن نطاق بحثنا ، ولكن كل ما يهمنا معرفته أنه تحول لطلب المعونة من ملك البلغار تربل Terbel مستعيضاً بذلك عن معونة الخزر ، وبفضل هذه المعونة التي بذلها البلغار ، ظهر أمام أسوار القسطنطينية في خريف سنة ٧٠٥م ، ونجح بعد مغامرة جريئة في دخول المدينة

---

(١) Bury : Later Roman Empire, II, p. 358.

(٢) Dunlop : *op. cit.*, p. 172.

(٣) Ostrogorski : *op. cit.*, p. 123.

(٤) ذكر نقفور Nicephorus أنه أرسلها إلى أبيها أنظر : Nicephorus, 47, Ed. Bonn.

(٥) Ostrogorski : *op. cit.*, pp. 125-6.

واستعاد عرشه ، وقرن ذلك بكثير من أعمال العنف والقسوة ضد أعدائه ومنافسيه ، ونكل بكثير منهم بالقتل أحياناً والتعذيب أحياناً أخرى ، حتى دانت له السلطة في النهاية[١] ، وبطبيعة الحال لم يكن جستنيان الثاني راضياً عما فعله الخزر ، وما أظهروه من روح الغدر والخيانة فبادر بإرسال أسطول كبير لإحضار زوجته من بلاد الخزر ، ولقي هذا الأسطول حظا سيئاً في البحر ففقد بعض سفنه وعدداً كبيراً من رجاله قبل الوصول إلى بلاد الخزر . وتذكر الروايات أن خاقان الخزر أبدى في تلك الآونة رغبة أكيدة في ضرورة نسيان الماضي وتجاوز تلك التجربة في العلاقات بين الطرفين ، فكتب إلى الإمبراطور معاتباً على أنه لم يكتف بإرسال سفينتين أو ثلاث لاستعادة زوجه وانما أرسل هذا الأسطول العظيم كما لو كان راغباً في استعادتها بطريق القوة[٢] . وحملت رسالة الخاقان أيضاً أنباء مولد غلام للإمبراطور في بلاد الخزر وتهنئته بذلك المولود الجديد ورغبة صادقة في فتح صفحة جديدة في العلاقات بين الجانبين ، كما بادر الخاقان بإرسال أخته إلى زوجها معززة مكرمة ، وفي صحبتها عدد من الحراس ، حيث جرى استقبال هذه الأميرة الخزرية — في القسطنطينية — استقبالا حافلاً وجرى تتويجها كإمبراطورة وشريكة لجستنيان الثاني في الحكم هي وولدها « طيبريوس » الذي جعله جستنيان قسيما له في الملك[٣] .

غير أن جستنيان الثاني لم يكن في حقيقة الأمر راغبا في نسيان الماضي بكل ما فيه ، فما لبث أن فكر في الانتقام من سكان شبه جزيرة القرم خاصة أهالي خرسون ومدينة البسفور لما سبق أن عاناه منهم ، فأرسل في سنة ٧١٠م أسطولاً ضخماً يحمل نحو مائة ألف من الرجال ، وأرسل معهم رجلين على جانب كبير من الشهرة هما إلياس Elias وباردانس Bardanes ، وأمر قادة الأسطول بأن يعملوا السيف في سكان خرسون والبسفور وأماكن أخرى حددها لهم[٤] ، ويبدو أن جستنيان كان راغباً في وضع إلياس حاكماً لخرسون بعد قهرها وكفالة الأمن فيها ، كما كانت له أهداف أخرى من إرسال هذه الحملة لا تستطيع

(١) Dunlop : *op. cit.*, p. 172.

(٢) Nicephorus, 575, Ed. Bonn.

(٣) Dunlop : *op. cit.*,p. 173.

(٤) Theophanes, 578, Ed. Bonn.

المصادر المتاحة بين أيدينا أن تعيها جيداً أو تلم بها[١] ، إذ ليس من المعقول أن يرسل جستنيان مثل هذه الحملة الكبيرة لمجرد التنكيل بسكان مدن القرم ، وخلع حاكم خرسون ، وتنصيب حاكم غيره ، فهذه الأمور كلها كان يمكن أن تحققها قوة أصغر من ذلك بكثير. ولعل ذلك هو الذي جعل بعض المؤرخين يتساءلون : هل كان هناك تهديد خطير في ذلك الوقت من جانب خاقان الخزر ؟ أم أراد جستنيان استرجاع المدن والبلاد التي استولى عليها الخزر تماما أو مدوا نفوذهم إليها توطئة لضمها ؟ أم أن جستنيان شعر بأن تداخل الخزر في بعض مناطق الحدود قد أعطاهم مكانة أكبر مما يستحقون ، فأراد أن يعيدهم إلى حجمهم الطبيعي ولو اضطر لحربهم حرباً ضارية[٢] .

ونستهل معالجة هذه القضية بالقول أن المؤرخين البيزنطيين القدامى أنفسهم قد أشاروا إلى الوجود الخزري والموظفين الخزريين في فاناجوريا التي كانت جزءا من أملاك بيزنطة ، فضلاً عن أنه كان للخزر حاكم في خرسون يسمى « تودون Tudun » يمثل خاقان الخزر في تلك المدينة[٣] ، كما كان في البسفور أيضاً عدد من الموظفين الخزريين يمثلون خاقان الخزر ، وذهب المؤرخ المحدث بيوري إلى أن الخزر كانوا قد غزوا البسفور في وقت سابق ربما في أواخر القرن السادس الميلادي ، ومن ذلك الوقت غدا لهم نفوذ قوي في ذلك الإقليم[٤] ، ويؤكد بيوري ودنلوب أن هناك من الشواهد ما يوحي بأن أهم مدينتين في القرم كانتا على الأقل تحت تصرف وتحكم الخزر[٥] . وليس هناك شك في أن تسلط الخزر في خرسون قد زاد بعد انتقال جستنيان الثاني إلى العاصمة وتركه هذه المدينة ، فقد سارعوا بإرسال حاكم خزري « تودون » إلى المدينة ربما في سنة ٧٠٤ بعد خروج جستنيان منها وغدت هذه المدينة الهامة شبه مفقودة بالنسبة للإمبراطورية ، كما استولى الخزر كذلك على البسفور ، ولهذا نكاد نجزم بأن حملة جستنيان الثاني على خرسون والبسفور لم تكن بهدف التنكيل فقط بسكان

---

(١) Nicephorus, 50.

(٢) Dunlop : *op. cit.*, p. 174.

(٣) Theophanes, 578, Nicephorus, 51

(٤) Bury : Later roman empire, II, 358, n. 1.

(٥) Dunlop : *op. cit.*, p. 174. Bury : *op. cit.*, p. 359.

هذه الجهات بقدر ما كانت تهدف إلى **استعادة الأملاك التي استولى عليها الخزر من ناحية وتأمين الأملاك التي كان يهددها خطر الفقدان من ناحية أخرى**[١] ، ومن هنا جاءت ضخامة هذه الحملة ، وكثرة عدد جنودها ، وإرسال اثنين من أبرز رجالات بيزنطة على رأسها ، فضلاً عن عدد من كبار القادة ، تحسباً للدخول في معارك حامية ضد خاقان الخزر ومحاولة قذفه إلى أبعد مما كان ، وتطهير تلك المناطق من النفوذ الخزري نهائياً .

ولقد نجحت القوات الحربية البيزنطية فعلاً في الاستيلاء على خرسون ، دون مقاومة ، وأسرت كثيراً من رجالاتها البارزين ، وعلى رأسهم الحاكم الخزري أو التودون Tudun ، كما التقطت عددا كبيراً من الأطفال بينما لقى الآخرون من سكان المدينة نهاية بائسة بأمر الإمبراطور[٢] ، ثم صدرت الأوامر للحملة بالعودة بأسراها ومسجونيها سريعاً إلى بيزنطة . وعلى الرغم من أن الوقت كان غير مناسب للابحار بهذا العدد الكبير من الأسرى والرجال ، اذ كان ذلك في شهر أكتوبر ، إلا أن قادة الحملة لم يكن أمامهم إلا الطاعة للإمبراطور ، فما كادوا يبحرون حتى صادفتهم عاصفة هائلة حطمت كثيراً من سفنهم وتسببت في فقد نحو ثلاثة وسبعين ألفا من الأنفس[٣] . وكان رد الفعل لدى جستنيان الثاني يثبت أن عقل هذا الإمبراطور لم يكن في حالة طبيعية ، بل كان في حالة غير متوازنة إذ عبر عن رضائه عما حدث ، وأظهر سروره تجاه هذه الأنباء بل شرع في اعداد حملة جديدة لتسوى خرسون بالأرض[٤] .

ويبدو أن المأساة التي تعرض لها أهالي خرسون ورجال الحملة ، وما ظهر من تبلد جستنيان تجاهها وسروره بأنبائها قد أحنق كلاً من إلياس وباردانس رجلي الامبراطور ، فطرحا طاعة جستنيان وأعلنا مناوأته لا سيما وقد أظهر أهل شبه جزيرة القرم عزماً وتصميماً

---

(١) Dunlop : *op. cit.*, p. 174.

(٢) *Ibid.*, p. 174.

(٣) Dunlop : *op. cit.*, p. 174.

(٤) Nicephorus, pp. 50-51. Theophanes, pp. 578-9.

على المقاومة تجنباً للنهاية التعسة التي لقيها أهل خرسون ، فقد أعدوا دفاعاتهم وطلبوا المساعدة من الخزر وأعلن الجميع الثورة في وجه الإمبراطور وعزمهم على مقاومته[١] ، وحينما وصلت هذه الأنباء إلى العاصمة تحقق جستنيان من خطورة الموقف ، وأيقن أن الوقت غدا متأخراً لعمل شيء ، فاستقر رأيه في النهاية على إرسال بعثة على رأسها رجلين من أبرز رجالات وقادة بيزنطة لاقرار الأمور في خرسون واستعادة الناجين أو الباقين على قيد الحياة من رجاله ، وحمل الحاكم الخزري (تودون) إلى القسطنطينية[٢] ، ولا بد وأن جستنيان أدرك حينئذ أن الصدام مع خاقان الخزر في تلك الظروف لن يؤدي إلى نتيجة حاسمة لصالح الامبراطورية فحاول أن يعيد جسور الصلات والعلاقات مع الخزر وأن يسترضي الخاقان ويكسب وده فكان من بين اهداف البعثة أو السفارة تقديم الاعتذار للخاقان عما حدث ، ومحاولة كسب عطفه من جديد ، كما كان من أهدافها العودة بإلياس وباردانس الذين كان جستنيان ساخطاً عليهما أشد السخط[٣] ، غير أن تنفيذ كل هذه المهام لم يكن أمرا هيناً بالنسبة لأفراد ههذ البعثة ، إذ لم يستمع لهم أحد في خرسون ، بل لقي قادة هذه السفارة حتفهم في اليوم التالي لدخولهم المدينة ، على حين سلم بقية أعضاء البعثة للخاقان الذي أمر بقتلهم جميعاً ، وكانوا نحو ثلاثمائة رجل . وهكذا فشلت هذه البعثة في تحقيق أهدافها ، وظلت جسور الصلات مقطوعة بين الخزر وإمبراطور بيزنطة والعلاقات بينهما يميزها العداء الشديد ، وازداد نفوذ الخزر في شبه جزيرة القرم بأسرها[٤] .

وبعد قتل سفراء جستنيان الثاني ، خطت الثورة في شبه جزيرة القرم خطوة أخرى على جانب كبير من الخطورة ، اذ قرر المتمردون رفع إمبراطور من بينهم ، ووقع اختيارهم على باردانس Bardanes الذي كان من أصل أرمني ، فاتخذ لقب فيلبيكوس Philysicus في ظل حماية الخزر[٥] ، وكان رد جستنيان على هذه الخطوة أن أمعن في الانتقام من أسرة

---

(١) Ostrogroski : *op. cit.*, p. 127.

(٢) dunlop : *op. cit.*, p. 175.

(٣) Dunlop : *op. cit.*, p. 175.

(٤) Ostrogorski : *op. cit.*, p. 127.

(٥) Nicephorus, 50-1, Bury : *op. cit.*, II, p. 363.

إلياس في بيزنطة وارتكاب عدد من الجرائم الجديدة ضد الأبرياء في العاصمة ، وفي نفس الوقت بادر بإعداد حملة بحرية كبيرة زودها بكل أدوات التدمير والحصار المتاحة في ذلك الوقت حتى تنجح في اقتحام خرسون والبسفور وتعيد سلطان الإمبراطورية إلى شبه جزيرة القرم ، وتنهي النفوذ الخزري في تلك الجهات [١] . وتقدم قائد هذه الحملة ويدعى ماروس Maurus ، وحاصر خرسون سنة ٧١٠م (٩٢هـ) ، وراح يقذف أبراجها ودفاعاتها إلا أنه اضطر أمام عنف المقاومة ، ووصول نجدة خزرية إلى المدينة إلى وقف القتال ، وانتظار ما تسفر عنه الأحداث ، وفي نفس الوقت رأى الإمبراطور الثائر — باردانس أو فيليبكوس كما كان يدعى — خطورة الموقف وأيقن أن نتيجة هذا الصراع ليست مضمونة ، فانتهز فرصة توقف القتال ، واستفاد من هذا الهدوء وانسحب هارباً إلى بلاط الخاقان الخزري [٢] .

غير أن الأحداث ما لبثت أن سارت في اتجاه آخر ، بغير ما كان يحب جستنيان ويهوى ، فقد أيقن قائده ماروس أنه ليس من القوة الكافية ، بحيث يستطيع تغيير الوضع في تلك الجهات ، أمام إصرار الثوار وعنف المقاومة وتعضيد الخزر ، وخشي في نفس الوقت إن هو عاد خائبا إلى جستنيان ما يمكن أن يتعرض له من تنكيل الإمبراطور المتعسف ، ولهذا خطا ماروس خطوة بالغة الخطورة اذ قرر فجأة الاعتراف بفيليبكوس إمبراطورا وتقديم التأييد له ، وتبعه في ذلك كل رجاله [٣] . وتقدم القائد البيزنطي إلى خاقان الخزر يطلب تسليمه الإمبراطور الجديد ، إلا أن الخاقان رفض تسليم ضيفه إلى مواطنيه إلا بعد أن يتعهدوا بعدم اغتياله ، ويدفعوا مبلغا كبيراً من المال ضمانا لسلامته ، ولم يجد البيزنطيون غضاضة في ذلك ، فبادروا بدفع الفدية وتسلموا الامبراطور ، فجرى استقباله من قبل رعاياه استقبالا حافلاً [٤] ، وسار على رأس أسطوله إلى مياه القسطنطينية ، وما كاد يقترب منها حتى فتحت له المدينة أبوابها بعد أن تخلى الناس عن

---

(١) Dunlop : *op. cit.*, p. 176.

(٢) Dunlop : *op. cit.*, p. 176.

(٣) Theophanes, 583.

(٤) Ostrogorski : *op. cit.*, p. 127.

جستنيان ، وجرى خلعه ولقي في النهاية حتفه على يد أحد المقربين اليه ، وأرسلت رأسه إلى روما ورافقنا إمعانا في الانتقام منه كما لقي ابنه الصغير «طيبريوس» مصرعه ، ونودى بفيليبكوس إمبراطوراً[١] وانتهت بذلك أسرة هرقل ، كما انتهت حلقة هامة من حلقات الصراع بين بيزنطة ودولة الخزر في العصور الوسطى .

ومما يسترعي الانتباه في هذه الأحداث أن خاقان الخزر كان يلعب دوراً متعاظماً على مسرح الأحداث في شبه جزيرة القرم ، وكانت سلطته آخذة في الازدياد شيئاً فشيئاً ، ومما يدل على ذلك أنه حين تخلى عن جستنيان الثاني جعل **سقوطه أمراً مؤكداً** على حين لم يكن فيليبكوس (باردانس) ليستطيع البقاء دون معاونته[٢] . وليس من المبالغة في شيء القول بأنه كان بوسع خاقان الخزر في تلك الآونة أن يرفع حاكماً جديداً في بيزنطة ، ويمنح البيزنطيين إمبراطوراً جديدا ، بعد أن أصبح للخزر في سنة ٧١٠م (٩٢هـ) تواجد حقيقي على سواحل البحر الأسود ، وكان نفوذهم قد تطرق إلى هذه الجهات قبل ذلك بعشرات السنين[٣] ، وترتب على وصول الخزر إلى تلك الجهات أن غدا الصدام بينهم وبين الدولة الإسلامية واقعاً لا محالة سيما وقد أظهر الامويون في هذه المرحلة نشاطاً جما لمد فتوحاتهم وتوسيع رقعة دولتهم الفتية في تلك المناطق لتطويق الدولة البيزنطية[٤] .

والواقع أن صلة الخزر ببزنطية لم تقتصر على الشئون السياسية والعسكرية في هذه المرحلة ، بل تشير الدلائل إلى أن ما كان يجري في دولة الخزر لا سيا في النواحي الدينية والروحية ، كان له صدى عظيماً في بيزنطة ، ولعل بيزنطة قد نظرت إلى ذلك نظرة جادة باعتبارها أكبر قوة روحية مسيحية في شرق أوربا وما والاها ، ولهذا كانت ترقب التغيرات الدينية والروحية في دولة الخزر بعين مفتوحة ، وتحاول أن توجه هذه التغيرات لصالح المسيحية والمصالح البيزنطية بصفة عامة . وكان أن أخذت دولة الخزر منذ أواخر القرن

---

(١) Theophanes, 583.

(٢) Ostrogorski : *op. cit.*, p. 127.

(٣) Dunlop : *op. cit.*,p. 176.

(٤) الطبري : تاريخه ج ٨ ص ١٧٤ .
المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٥٥ . ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٨٦ .

السابع تفضل الديانة اليهودية وتعمل على سيادتها بين الرعية ، غير أن ذلك كان له رد فعل عنيف في الإمبراطورية البيزنطية ، فعجل الإمبراطور جستنيان الثاني سنة ٦٩٢ م — قبل خلعه — بعقد مجمع ترولان Trullan الديني لمعالجة قضية اليهودية ، ونجح هذا المجمع في إصدار بيانه الداعي لاستئصال شأفة «الانحراف اليهودي»[١] ، وحين ولى الإمبراطور ليو الأيسوري (٧١٧ — ٧٤١م) ، أصدر مرسوماً هاماً في سنة ٧٢٠م تقريباً جرى بمقتضاه إلزام كل اليهود واجبارهم على التحول إلى المسيحية[٢] ، ويعلق أحد المؤرخين المحدثين على ذلك بأن هذا الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في بيزنطة له صلة باعتناق الخزر لليهودية[٣] . ويعني ذلك أن بيزنطة أقلقها استفحال أمر اليهودية في دولة الخزر فجاء رد الفعل لدى البيزنطيين عنيفاً وفي صورة حركة اضطهاد شديدة لليهود في أنحاء الإمبراطورية ، مقروناً بعقد المؤتمرات الدينية ومحاولة النيل من عقيدة اليهودية ودمغها بالانحراف على ذلك يؤدي إلى وقف انتشارها في دولة الخزر وانصراف الخزريين عنها .

ويبدو أن ذلك كانت له آثار إيجابية فعلاً ، إذ تشير الدلائل إلى أن اعتناق اليهودية بين الخزر ظل قاصراً على ملكهم وفئة قليلة من الطبقة العليا في البلاد دون أن تسود اليهودية بين الطبقات الأخرى[٤] . لكن الظروف ما لبثت أن ساعدت على انتشار اليهودية أكثر من ذلك . إذ لم تمض إلا سنوات قليلة حتى اصطدم الخزر بجيوش الخلافة الأموية بقيادة مروان بن محمد ، وهي الحرب التي أسهبت المصادر العربية والعبرية في ذكرها وذكرت أنها أسفرت عن تقليم أظفار الخزر من ناحية . ووقف تقدم الجيوش الإسلامية في بعض المناطق من ناحية أخرى كما ذكر أن خاقان الخزر الذي هزم أمام الجيوش الإسلامية أبدى رغبته في اعتناق الإسلام كما يقرر البلاذري ، وتلقى دروساً دينية على يد اثنين من الفقهاء المسلمين[٥] . لكن يبدو أن هذه الظروف هي التي ساعدت على انتشار اليهودية بين قطاعات أخرى من الخزر الذين أحنقهم الخضوع للمسلمين وتحول الخاقان إلى الإسلام

---

(١) Bury : *op. cit.*, II, pp. 326-7, 388.

(٢) *Ibid.*, p. 431.

(٣) Dunlop : *op. cit.*, p. 177.

(٤) Zaki Validi : "Ibn Fadlan", p. 307. Dunlop : *op. cit.*, p. 86.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ق ١ ص ٢٤٥ (نشر المنجد)

فأرادوا التحول في الاتجاه المضاد لديانة بيزنطة وديانة الخلافة الأموية جميعاً ، باعتناق اليهودية[1] . ومما يؤكد ذلك أن الامبراطور ليو الثالث (الأيسوري) ٧١٧ — ٧٤١ م اختار لابنه قسطنطين (الخامس) أميرة خزرية وزوجه بها سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) ، بعد سنة أو اثنتين من الصدام الذي جرى بين الخزر والمسلمين ، مقيماً بذلك حلفاً مع الخزر ضد المسلمين من ناحية وآملا في نفس الوقت في استعادة مكانة بيزنطة الروحية في دولة الخزر من ناحية أخرى ، فقد كانت الأميرة التي اختارها إبنة أو أخت الخاقان الذي هزم أمام المسلمين[2] ، ولم تكن هذه الأميرة أصلا مسيحية إذ كان اسمها «شيشاك "Chichak"» ، وجرى تعميدها عند زواجها وأعيد تسميتها بأيرين .

ويحدثنا المؤرخ البيزنطي القديم ثيوفانو أن هذه الأميرة : «قد تعلمت الرسائل المقدسة ، وأنها أصبحت معروفة بتقواها» ، ولا بد وأنه يعني بالرسائل المقدسة التوراة العبرية التي عرفتها قبل ذلك في بلاد الخزر أي قبل مجيئها إلى بيزنطة[4] ، ويضيف كاتب بيزنطي آخر قديم هو زونارس Zonaras أن زوجها قسطنطين الخامس نفسه «لم يكن مسيحياً ولا هللينياً (وثنيا) ، ولا يهودياً خالصاً ، ولكنه كان مزيجاً من اللاتقوى»[5] ، بل يشير هذا الكاتب البيزنطي إلى أن قسطنطين قد تأثر بأفكار زوجته الخزرية ، فأصبح يهودياً ، إلى حد ما ، ولعل كل هذه الدلائل تشير إلى وجود اليهودية بين الخزر ، في وقت زواج قسطنطين الخامس ممن أسميت بأيرين مثلما تؤكد صدى ذلك كله في بيزنطة .

ولقد حكم قسطنطين الخامس ابتداء من سنة ٧٤١ م (١٢٣ هـ) ، وحينما توفيت زوجته الخزرية سنة ٧٤٧ م ، ظل أرملاً ثلاث سنوات كما تقرر الروايات القديمة[6] ، وكانت أيرين قد ولدت له ولداً أصبح فيما بعد إمبراطورا باسم ليو الرابع والمسمى بالخزري نسبة إلى

---

(١) Bury : History of the Eastern roman Empire, 407.

(٢) *Ibid.*, p. 407.

(٣) Theophanes, 631, Ed. Bonn.

(٤) Dunlop : *op. cit.*, p. 177.

(٥) Ed. Bonn, III, p. 265.

(٦) وهو معاصر سرياني Bar Hebraeus (Trans. Budge, p. 113)

أمه ، وحكم من سنة ٧٧٥م — ٧٨٠م . وليس هناك خلاف على أن قسطنطين الخامس هو الذي تزوج أميرة خزرية أنجبت له ليو الرابع ، الذي عرف بالخزري ، غير أن هناك رسالة محفوظة في الأرشيف الإداري الامبراطوري ، تتحدث عن إمبراطور يدعى ليو «تزوج زوجة من الخزر» و«عقد حلفا سياسياً مع خاقان الخزر على أثر هذه الزيجة»[١] . وليس هناك إمبراطور باسم ليو تزوج أميرة خزرية ، وإنما هناك ليو الثالث الذي زوج ابنه قسطنطين الخامس من تلك الأميرة المذكورة ، وتحالف مع الخزر فعلاً تحالفا سياسياً ، على حين تزوج ليو الرابع بن قسطنطين الخامس من امرأة أثينية . ومن الواضح أن ما جاء بوثيقة الأرشيف الإداري الامبراطوري وما دونه الكاتب الإمبراطوري بورفيرجنتوس Porphyrogentus ليس صحيحاً ، وكانت هذه الروايات غير الدقيقة سبباً في الخطأ الذي وقع فيه المؤرخ الشهير جيبون فيما يختص بزواج أحد الأباطرة البيزنطيين من «زوجة بربرية» ذكر أحيانا أنه ليو وأحياناً أخرى أنه قسطنطين الرابع (الذي لا بد وأن يكون الخامس)[٢] ، وليس هناك خلاف على أن قسطنطين الخامس هو الذي تزوج الأميرة الخزرية سنة ٧٣٢م باختيار من والده ليو الثالث الأيسوري ، وأنها عاشت إلى جانبه بعد ولايته العرش سنوات حتى توفيت سنة ٧٤٧م بعد أن أنجبت له ابنه ليو الذي تولى العرش باسم ليو الرابع والذي جرت تسميته بالخزري نسبة إلى والدته الخزرية .

ويبدو أن العلاقات الخزرية البيزنطية ظلت علاقات مودة وحسن جوار ما بقي من القرن الثامن الميلادي ، لأن المصادر سكتت عن ذكر ما ينبيء بغير ذلك طوال تلك الفترة ، ولعل انشغال الخزر بحروبهم ضد المسلمين فيما عرف بالحرب الثانية ، والتي انتهت — طبقاً لما أورده المؤرخون المسلمون — بهزيمة الخاقان وقبوله التحول إلى الإسلام[٣] . وحين تجرأ الخزر وهاجموا بلاد الكرج وأرمينيا سنة ١٤٧ هـ (٧٦٤ — ٧٦٥م)[٤] ، وكذلك ما كان

---

(١) "De Administrando Imperio" Ed. Bonn, 83, 87.

(٢) Decline and Fall, p. 53. Theophanes, 614, 631.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ق ١ ص ٢٤٥ .

(٤) اليعقوبي : تاريخه ج ٣ ص ١١١ (ط. النجف ١٩٦٤ — ١٣٨٤ هـ)

يجري بين الحين والحين من حروب بين الطرفين ، كما حدث إبان عهد الرشيد سنة ١٨٣ هـ (٧٩٩ م)(١) . كل ذلك كان له ضلع في بقاء جسور الصلات بين دولة الخزر وبيزنطة وحرص الطرفان خلال هذه الأحداث أن يسود الوئام بينهما حتى بعد أن سقطت الخلافة الأموية قرب منتصف القرن الثالث الميلادي سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) وانتقل مركز الثقل من الشام إلى العراق ، وخفت وطأة الخلافة على الحليفين إلى حد ما . غير أن هذه الفترة بالذات هي التي شهدت فيما يبدو نمو وتطور استقلال دولة الخزر عن كل القوى المعاصرة ، وان ظلت العلاقات بين الخزر وبيزنطة تميزها روح المودة ويسودها الوئام(٢) .

ولم يحدث أن عُكر صفو هذه العلاقات ، سوى مرات قليلة حفظت لنا الروايات بعضها ، لا سيما قرب أواخر القرن الثامن ، إذ يذكر أن أميراً من أمراء الأبخاز قيل أنه كان يدعى ليو وأنه كان حفيداً لملك الخزر (ابن بنته) نجح في الاستقلال عن بيزنطة بمساعدة الخزر الذين لم يعبأوا في هذه المرة بغضب القسطنطينية وقدموا العون والتأييد لذلك الأمير الثائر وساعدوه على تدعيم استقلاله في الابخاز عن نفوذ الامبراطورية البيزنطية ، وتلك كانت واحدة من المرات القليلة التي وقف فيها الخزر موقف العداء من الامبراطورية البيزنطية(٣) .

غير أن العلاقات ما لبثت أن عادت إلى طبيعتها بين الخزر وبيزنطة فتذكر النصوص أنه في سنة ٨٣٣م (٢١٨ هـ) أو حوالي هذه السنة بعث خاقان الخزر إلى بيزنطة يطلب مساعدتها لبناء قلعة على نهر الدون Don ، وكان إمبراطور القسطنطينية في ذلك الوقت هو الإمبراطور ثيوفيل (ثيوفيلوس) ، الذي ما لبث أن أجاب الطلب وبعث برجاله لإقامة هذه القلعة(٤) ، فوصل البيزنطيون إلى خرسون ثم عبروا بحر أزوف إلى الأراضي الخزرية ، وهناك في مكان ما على نهر الدون أقام البيزنطيون قلعة من الآجر ، ظلت صامدة لفترة بعيدة ، وجاء ذكرها في كثير من الروايات اللاحقة ، وليس من المعروف تماماً المكان الذي

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ١٠٨ حوادث سنة ١٨٣ هـ

(٢) Dunlop : *op. cit.*, p. 179.

(٣) Barthold. Enc. Isl. art "Abkhaz".

(٤) Dunlop : *op. cit.*, p. 186.

أقيمت فيه القلعة ويرجح بعض المؤرخين المحدثين أنها أقيمت على الضفة اليسرى لنهر الدون عند التقائه بنهر سيملا Tsymla [(١)] كما أنه ليس من المعروف تماما العدو الذي أقيمت هذه القلعة لصده ، ويرجح أنها أقيمت بقصد الدفاع ضد أي عدو يأتي من الغرب لا سيما القبائل الضاربة غربي الدون ويذكر المسعودي أخبار حملة للروس تجاه بحر قزوين مارين ببحر أزوف وطريق الدون — فولجا . وكانت هذه الحملة في سنة ٩١٣م (٣٠١هـ) ، وتحدث المسعودي عن نقطة خزرية قوية في مكان ما على طريقهم كانت الفرق الخزرية تتوقف فيها بانتظام ، وهي في طريقها لحرب الغزاة[(٢)] ، وكان الروس في هذه المرحلة من أكثر جيران الخزر عداء لهم ، في الوقت الذي كانت قوتهم آخذة في الزيادة غربي وشمالي بلاد الخزر[(٣)] . وعلى غرار هذه القلعة طلب الخزر في نفس العام ٨٣٣م (٢١٨هـ) مساعدة بيزنطة لبناء قلعة ساركيل Sarkil التي تردد ذكرها في كثير من النصوص البيزنطية والعربية أيضاً ، وقيل أنها بنيت للدفاع ضد المجريين[(٤)] . Magyars

غير أنه في سنة ٨٦٠م أو حوالي هذه السنة أرسل الخزر سفارة إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث حاملين طلباً من نوع جديد ، إذ طلبوا أشخاصا ليشرحوا لهم عقيدة المسيحية[(٥)] . ولقد نصح البطريرك فوتيوس الإمبراطور بأن يرسل لهم أحد تلاميذه ومريديه ويدعى قسطنطين ، ووافق ميخائيل على ذلك ، ولقد أظهر فوتيوس اهتماماً شخصياً خاصاً ومباشرا ببلاد الخزر لأنه هو ربما كان من أصل خزري كما أشار الإمبراطور إلى ذلك يوما . والمعروف أن الديانتين الإسلامية واليهودية كانتا معروفتين عند الخزر[(٦)] . وذهب قسطنطين — المبعوث الديني — إلى بلاد الخزر بعد أن مكث بخرسون بعض الوقت لدراسة اللغة الخزرية ، ثم رحل إلى أتيل Atil [(٧)] ، عبر طريق الدون — فولجا ، ثم انحدر عبر الساحل القوقازي

---

(١) Vernadsky : Ancient Russia, p. 305.

(٢) المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) Dunlop : *op. cit.*, p. 187, Bury : *op. cit.*, p. 418.

(٤) Dunlop : *op. cit.*, p. 187.

(٥) Bury : *op. cit.*, pp. 486-7. Vernadsky : *op. cit.*, p. 388.

(٦) Ostrogorski : *op. cit.*, p. 203.

(٧) Bury : *op. cit.*, p. 394 n 6. Vernadsky : *op. cit.*, p. 350.

حتى لقي الخاقان ربما في سمندر Samandar . وقد حدث جدل عنيف بين قسطنطين وخصومه الدينيين أحرز فيه المبعوث المسيحي نصراً مؤزراً ، لكن على الرغم من ذلك لم يجر تعميد سوى مائتين من الأشخاص ولم تلق المسيحية إلا إقبالا محدودا ، وعلى الرغم أيضاً مما تركه قسطنطين من أثر طيب في نفس الزعيم الخزري إلا أن بعثته لم تكن ناجحة تماما ، ثم عاد إلى القسطنطينية بعد ذلك بوقت دون تحقيق النجاح المرتقب[١] . وتذكر الروايات أن ذلك الجدل قد جرى في حضور الخاقان نفسه ، بين قسطنطين من ناحية وبين يهودي ضليع في الكتاب المقدس من ناحية أخرى . واستنتج المؤرخون من ذلك أن الديانة اليهودية كان لها شأن في بلاد الخزر في منتصف القرن التاسع الميلادي[٢] ، وكان لأتباعها دور خطير ومؤثر في بلاط خاقان الخزر ، على الرغم من أنه ليس ثمة شواهد أو قرائن مباشرة تؤكد أن الخزر كشعب كانوا قد تحولوا إلى اليهودية تماما . بل على عكس ذلك أوضحت بعثة قسطنطين أن تحول الخزر لليهودية لم يحدث على الأقل لفترة أخرى[٣] .

لكن الشيء الذي يذكر لبيزنطة في هذا المجال أنها كانت حريصة على انتهاز كل فرصة للتأثير في شعب الخزر ، وشده إلى المسيحية البيزنطية ، وربطه بعجلة الإمبراطورية إن لم يكن في المجال السياسي والعسكري ، فلا أقل من أن يكون ذلك في المجال الديني والروحي وما يستتبع ذلك من فكر وحضارة وثقافة . وتشير الدلائل إلى أن بيزنطة نجحت في هذا المجال إلى حد كبير على الرغم من أن المصادر المتاحة سكتت عنا فيما يختص بهذا الموضوع في الفترة التالية ولم تذكر إلى أي مدى واصلت بيزنطة جهودها في هذا الميدان ، الأمر الذي اقنع فريقاً من المؤرخين المحدثين[٤] . بأن تحول الخزر النهائي إلى اليهودية لم يحدث إلا قرب أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، ولولا ما حدث من أندلاع الحرب من جديد بين الخزر والمسلمين وما كان من ضعف الإمبراطورية البيزنطية واضمحلالها بعدئذ لواصلت بيزنطة جهودها في هذا المجال ولحالت بين الخزر واعتناق اليهودية ، أو على الأقل

(١) Dunlop : *op. cit.*, p. 195.

(٢) Ostrogorski : *op. cit.*, p. 203.

(٣) Dunlop : *op. cit.*, p. 195.

(٤) Vernadsky : Anc. Rus., p. 350.

أخرت اعتناقهم لفترة أخرى[1] . ولم تقم بيزنطة في الفترة التالية سوى بمحاولات باهتة في هذا المجال واقتصرت جهودها على محاولة قمع اليهود واضطهادهم في أنحاء الإمبراطورية ربما لحصر اليهودية ، والتضييق عليها ، فقد أشارت الروايات إلى أن الصلات بين دولة الخزر والإمبراطورية البيزنطية قد تأثرت باضطهاد اليهود في عهد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس (٩١٩ — ٩٤٤ م) ، وقد نشر شختر Schechter وثيقة تدل على ذلك وفي نفس الوقت أشار المسعودي إلى التجاء كثير من اليهود الذين أخرجوا من الإمبراطورية البيزنطية إلى بلاد الخزر في ذلك العهد[2] .. وظلت الأحوال كذلك حتى نهاية دولة الخزر في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) .

ولقد جاءت نهاية استقلال الخزر — في القرن الحادي عشر الميلادي — على يد قوتين احداهما دولة الروس والثانية الدولة البيزنطية على عهد الإمبراطور ذائع الصيت باسيل الثاني . فعلى الرغم من أن الروس لم يفتحوا الموطن الأصلي للخزر ، على المجرى الأدنى لنهر الفولجا وفي داغستان في القرن الحادي عشر الميلادي ، إلا أنهم اسهموا في القضاء على استقلال الخزر بغزو أجزاء من دولة الخزر من ناحية والتحالف مع البيزنطيين لتصفية أجزاء أخرى من ناحية ثانية ، فقد ذكرت الروايات أن الإمبراطور باسيل الثاني أرسل اسطولاً عظيماً استولى على إقليم «خزريا» — كما جاء في المصادر البيزنطية — وإن كان هذا الاسم لا يشمل كل بلاد الخزر وإنما اقتصر في ذلك الوقت على جزء من شبه جزيرة القرم وشبه جزيرة تامان المقابلة لها[3] . فقد تحالف باسيل الثاني مع الروس ، وأرسل هذا الأسطول سنة ١٠١٦م فاستولى على خزريا واضعاً بذلك خطوة هامة في تصفية دولة الخزر التي لا بد وأنها لم تستطع البقاء بعد ذلك طويلاً بعد أن فقدت الجزء الأهم من أملاكها وأراضيها ، فاختفت رويداً رويداً وزالت كدولة مستقلة كان لها شأن في صدر العصور الوسطى وجاءت آخر أخبار عن الخزر ككيان قائم في عام ١٠٨٣م حين ذكروا على أنهم جيران إمارة تموترخان ، وتدخلوا في الفتن التي حدثت في هذه الإمارة سنة ١٠٨٣م[4] وان سكتت

---

(١) Bury : *op. cit.*p. 394. Dunlop : *op. cit.*, pp. 195-6.

(٢) وانظر المسعودي : مروج الذهب ج ص ٢٠٦ — ٢٠٧ . Barthold : Enc. Isl. art "Khazar".

(٣) Barthold : Enc. Isl. art "Khazar". Dunlop : *op. cit.*,pp. 241-3.

(٤) Barthold : *op. cit.*,"Khazar". Dunlop : *op. cit.*, p. 252.

المصادر الإسلامية عن ذكر شيء عن نهاية دولة الخزر، فقد كان آخر ما ذكره ابن الاثير عن دولة الخزر في أحداث سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) حين أغار القائد فضلون الكردي والي كنجة على الخزر الذين كمنوا له وباغتوه في طريق عودته وقتلوه[1]. وهكذا انتهت دولة الخزر في صمت بعد أن فقدت استقلالها والجانب الأهم من أملاكها ثم زالت من صفحة التاريخ.

نخرج من ذلك كله فيما يختص بعلاقات الخزر ببزنطية بحقيقة هامة: أن الصلات بين الجانبين صلات قديمة، ربما ترجع إلى نهاية القرن السادس الميلادي إلى عهد الامبراطور موريس، وشهدت الفترة التالية زيادة الصلات والاحتكاك بين الطرفين على عهد الإمبراطور هرقل والامبراطور جستنيان الثاني وغريمه طيبريوس الثالث ثم الإمبراطور فيليبكوس (باردانس). ولم تجر هذه العلاقات في الميدان السياسي والعسكري وحده بل أيضاً في المجال الديني والروحي على عهد الأباطرة جستنيان الثاني أيضاً وليو الثالث الأيسوري وقسطنطين الخامس الذي تزوج أميرة خزرية أنجبت له ليو الرابع الذي عرف بالخزري. ومن خلال ذلك فتحت بيزنطة أعينها جيداً لتحول بين الخزر وبين اعتناق اليهودية، أو غيرها من الأديان وتشدهم إلى المسيحية البيزنطية (الأرثوذكسية) وسارت العلاقات طيبة بين الجانبين فترة أخرى ولم يتعكر صفوها سوى مرات قليلة عادت بعدها إلى حالتها الطبيعية، ولذلك طلب الخزر مساعدة بيزنطة مرات في بناء قلاع لصد أعدائهم من الغرب والشمال فلبى الإمبراطور ثيوفيل الطلب وتحمس لتقديم هذه المساعدة، وبعد ذلك بسنوات اتجه الخزر لطلب مساعدة بيزنطة لفهم العقيدة المسيحية والتفقه فيها فطلبوا من الإمبراطور ميخائيل الثالث من يقوم بهذه المهمة، فلم يتوان الإمبراطور عن تقديم ما طلبوا، وتسبب ذلك في تأخير اعتناق الخزر لليهودية التي لم تعرف طريقها إلى الخزر إلا قرب أواخر القرن التاسع الميلادي تقريباً. في فترة انصرفت فيها بيزنطة إلى حد ما عن شئون الخزر وشغلت بمشاكلها الخاصة، وما ران عليها من ضعف واضمحلال. وهكذا حاولت بيزنطة من البداية استقطاب هذا الشعب وشده إلى عجلة الإمبراطورية وتشجيعه على اعتناق المسيحية، والحيلولة بينه وبين اعتناق العقائد الأخرى، ولولا ما حدث من ضعف بيزنطة لواصلت جهودها في ذلك قبل أن ينتهي استقلال الخزر في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) على الأرجح.

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٣٥١ (بيروت ١٩٦٧).